المجلد الحادي عشر/ العدد الرابع / 10 أفريل 2020 ISSN: 1112-8518, EISSN: 2600-6200

انعكاسات السياسة الاجتماعية الكولونيالية على سكان الصحراء الجزائرية

Colonial Social Policy Implications on Algerian Desert 'sInhabitants

د / محمد برشان، أستاذ محاضر"أ"، جامعة طاهري محمد بشار،
د / سيدي عبد القادر سباعي، أستاذ محاضر"أ"، جامعة طاهري محمد بشار،

تاريخ الإرسال: 06 / 04 / 2019	تاريخ القبول: 28 / 03 / 2020	تاريخ النشر: 10 / 04 / 2020

ملخص:

لا يكتفي الاستعمار بتفكيك البنية الاجتماعية، والاقتصادية لمجتمع ما وتفتيت شبكاته التقليدية فحسب، بل يعمل جاهدا على إعادة بناء وتكوين جزئيين لقوى اجتماعية وأشكال اقتصادية جديدة تتماشى وأهدافه العامة. لأنّ الاستعمار الحديث حسب تعبير "ج.ا.ف. جايي "J.F.A Jayi" هو "مرحلة من تاريخ إفريقيا" غيّرت المجتمعات فعلا، ولكن دون أن تطلق العنان لأشكال التحوّل والتغيّر، إذ أنّ تلك المجتمعات حاولت مقاومة الكولونيالية، أو التفاهم معه بخلق مؤسسات جديدة، أو تكييف المؤسسات التقليدية لمواجهة التحديات الطارئة في ظلّ الاحتلال.

ولأنّ المجتمع في الصحراء لم يكن يختلف عن سكان الإقليم التلّي للجزائر من حيث تنظيمه وعلاقاته الاجتماعية، ولا من حيث تركيبته وبنيته الاجتماعية، فالارتباط الاجتماعي والاتصال التاريخي ظلّ مُتواصلا بين الإقليمين حتى أثناء التوّسع الاستعماري في الجزائر، فقد أضحى ذلك الارتباط يُشكّل خطرا على السياسة الكولونيالية في الجزائر. ومن ثمّ حاولت السلطة الكولونيالية منذ أن وطئت أقدامها المناطق الصحراوية قطع هذا الارتباط مُستندة في ذلك على ترسانتها القانونية. ومن ثمّ فإنّ إشكالية الموضوع تتمحور حول معرفة الانعكاسات المترتبة عن الإجراءات التي طبقتها السلطة الكولونيالية في الميدان الاجتماعي بالصحراء، ومحاولة تحديد طبيعة ودرجة تلك التحوّلات التي عرفها المجتمع.

الكلمات المفتاحية الصحراء، الأقاليم العسكرية، النظام القبلي، الإدارة الكولونيالية،الصرع الإثني،الزوايا، التحوّلات الاجتماعية.

Summary :

Colonialisme not only disassemble the social structure, economic and social fragmentation of its traditional networks, but is also working hard to reconstruct and form partial social forces and new economic forms consistent with its general objectives. Because modern colonialism, as J.F.A Jayi, states "is a phase of African history" That has actually changed societies, but without unleashing the formes of transformation and change. As these communities tried to resist colonialism, or Under standing with him to creates new institutions, or adapting traditional institutions to met the challenges of emergency under occupation. since the community in the desert was not different from the

المجلد الحادي عشر/ العدد الرابع / 10 أفريل 2020 ISSN: 1112-8518, EISSN: 2600-6200

population of the following province of Algeria in terms of organization and social relations, nor in terms of its structure and social structure, social cohesion and historical contact continued between the two région seven during the colonial expansion of Algeria, and it has become a threat to colonial politics in Algeria.

After that, the colonial authority has tried to cut off this link based on its legal arsenal. Thus, the problem is centered on the know ledge of the implications of the procedures, which applied by the colonial authority in the social field in the desert, and try to determine the nature and degree of those transformations known to society.

Keywords : Desert – Military Regions - Tribal System - Colonial Administration – Ethnique Epilepsy - Angles - Social Transformations.

مقدمة:

إيمانا منها بتفوّقها الحضاري والبعد العالمي لثقافتها، سعت السلطة الاستعمارية الفرنسية منذ القرن التاسع عشرة إلى إنشاء إمبراطورية استعمارية تحت شعار "السلم الفرنسي"، والذي كان يهدف إلى تحويل رعايا المستعمرات الفرنسية إلى مواطنين متشبعين بالقيم والحقوق الفرنسية، وذلك بتأهيلهم اجتماعيا،ثقافيا ودينيا دون أدنى اعتبار لهوياتهم وتاريخهم وخصوصياتهم العرقية والإثنية.

وقد حاولت السياسة الاستعمارية الفرنسية الاعتماد على مشروع الإدماج لاحتواء سكان الجزائر عامة، وجنّدت لها الإمكانيات المادية والبشرية اللازمة، وتفنّنت في التخطيط لها العبقرية العسكرية خاصة بالمناطق الصحراوية، وكانت تخفي هذه السياسة مبدأ ضرورة فرض الاستسلام على قبائل المنطقة. وللتخفيف من انعكاسات هذه الصدمة الحضارية حاولت السلطات الاستعمارية تطبيق أنجع الوسائل، والأساليب لتجسيد سيطرتها ونفوذها على سكان المنطقة، من خلال إدماجهم في منظومتها السياسية والاقتصادية والاجتماعية الفرنسي.

ترتكز إشكالية الدراسة في محاولة الإحاطة ببعض جوانب السياسة الاستعمارية في الميدان الاجتماعي بالصحراء الجزائرية، بالإضافة إلى التطرق إلى النتائج والانعكاسات التي ترتبت عن تلك السياسة، بمعنى إلى أيّ مدى نجحت السلطة الاستعمارية في تحقيق أهدافها وتصوراتها المحددة في غايتها من احتلال الصحراء؟ وهل هناك اختلاف بين هذه الانعكاسات، وبين تلك التي خلّفتها سياستها الاجتماعية بالشمال الجزائري؟

***- مدخل للدراسة:**

لا يمكن إدراك معنى ومستوى التحولات التي عرفها المجتمع بالصحراء الجزائرية في الميدان الاجتماعي من دون العودة إلى السياقين التاريخي والسياسي اللذين تكوّن فيهما هذا المجتمع، كما أنّه يصعب فهم خصوصيات المجتمع، وتحديد أبنيته الاجتماعية، والاقتصادية، والثقافية بمعزل عن الأحداث والتطورات السياسية التي عرفتها المنطقة خلال المرحلة التاريخية الهامة التي رافقت تثبيت المراكز الإدارية الاستعمارية.

المجلد الحادي عشر/ العدد الرابع / 10 أفريل 2020 ISSN: 1112-8518, EISSN: 2600-6200

1- المنظومة الاجتماعية بالصحراء قبل الاستعمار:

تشكلت البنية الاجتماعية في الجزائر أساسا من القبيلة والعرش، فالمجتمع الجزائري بعنصريه العربي والأمازيغي كان تنظيمه منذ القدم قبليا، وهذا التنظيم القبلي معروف في شمال إفريقيا حتى قبل الفتح الإسلامي، وقد غذّته الهجرات العربية بحركاتها الجماعية وأضافت له عنصرا إثنيا جديدا، الذي ساهم بشكل فعّال في تثبيت بلاد المغرب الريفي في حياة البداوة، والترحال والقبلية[1]، حيث كانت قاعدة التأثر والتأثير حاضرة في جميع المجالات في علاقة الأمازيغ بالعرب.

من ثمّ فإنّ البداوة ليست طبعا مرتبطا بسكان البدو الرُحّل، ولا ميزة اختصّ بها العرب وحدهم، بل هي نظام اجتماعي مُؤقت مرتّ به العديد من شعوب العالم بما فيها الشعوب الأوربية التي عرفت الكثير من هذه التجارب بعد تفكك الحضارة الرومانية. كما أنّ التنظيم القبلي يتناسب مع البيئة الصحراوية، فالقبيلة هي أساس كيان المجتمع الصحراوي باعتبارها معطى اجتماعي ومكون تاريخي، حيث تنتعش العصبية التي ترتبط ارتباطا وثيقا بمجتمع القبيلة، لأنّ ظروف الحياة القاسية هناك تقتضي تماسكا مستمرا بين أفراده. والوقوف أمام التهديدات التي تستهدف كيان القبيلة.

فعلى الرغم من التباين الإثنولوجي والأنتروبولوجي بين سكان الصحراء، أي بين القبائل البدوية الرحلية: وهي قبائل عربية الأصل تعيش حياة الترحال في مناطق تسيطر عليها تحيط بإقليم القصر. والقبائل الأمازيغية المستقرة داخل القصور والواحات إلاّ أنّ التمازج الاجتماعي والتواصل الثقافي بين العنصرين الأمازيغي والعربي أضفى على المجتمع المغاربي ومن بينهم سكان الصحراء تنوّعا وخُصوصية إثنوغرافية وثقافية، فهو يخضع لسلطة تقليدية (شيخ القبيلة) أو لسلطة عقلانية مثالية (المرابط)[2] أي شيخ الزاوية. ولم تكن تتحكم فيه بشكل مباشر التنظيمات الأخرى خارج إطار القبيلة والزاوية خاصة في ظلّ غياب السلطة المركزية بهذه المناطق. وينتشر هذا النظام خاصة عند القبائل الكبرى كذوي المنيع، أولاد جرير، العمور، حميان، أولاد سيد الشيخ، الرقيبات، تجاكنت، التوارق، الشعامبة، المخادمةأ السراحنة الأرباع...، حيث تملك القبيلة رصيدا إيديولوجيا (أنثروبولجيا) اندماجيا يقوم على النسب، أو رابطة الدم.

1- Jacques Berque, (1953) « Qu'est ce que Une Tribu Nord- Africaine ? », Dans Éventail De L'Histoire Vivante, Hommage a Lucien Febvre, Paris, P.269, (PP.261-271).

دعّم هذه الفكرة المؤرخ جورج مارسيه Marcais .G عندما أشار في بحثه إلى أنّ العرب: ... لم يُدربوا أهل البربر على الحياة البدوية، وعلى الأرجح لم يُغيّروا إلاّ قليلا نمط حياتهم البدوية التي كانوا يعيشونها واعتادوا عليها قبل مجيء العرب وكانت قبيلة زناتة تُمثل هذا العنصر البدوي، وإنّما رفع هؤلاء العرب عدد البدو بنسب من المستحيل تحديدها." ينظر: جورج مارسيه،(1991)، بلاد المغرب وعلاقاتها بالمشرق الإسلامي في العصور الوسطى، ترجمة: مصطفى أبو ضيف أحمد، منشأة المعارف، الاسكندرية، ص.238.

2- سعد طاعة،(2008)، "البنية الاجتماعية والاقتصادية للريف الجزائري 1930-1954"، مجلة المصادر، العدد 17 السداسي الأوّل، ص. 63.

المجلد الحادي عشر/ العدد الرابع / 10 أفريل 2020 ISSN: 1112-8518, EISSN: 2600-6200

وتبرز مؤسسة القصر لدى سكان القصور والواحات، والممثلة في الجماعة أو "تجماعت" بالأمازيغية بمثابة مجلس استشاري وتنفيذي للقبيلة ذات الأصول الأمازيغية. وأخيرا تأتي مؤسسة الزاوية وهي سلطة عقلانية مثالية " يُمثلها شيخ الزاوية أو مقدم الطريقة الصوفية. ومن ثمّ يُمكن القول بأنّ تنظيم المجتمع قد بُني منطقة على مؤسسات ذات خصوصية سياسية واجتماعية وثقافية، شكّلت ثلاثية تكاملية أدارت العلاقات داخل مجتمع سكان هذه المنطقة الصحراوية خلال عدة قرون، وقد مارست سلطتها داخل الفضاءات التالية:

*.القبيلة والممثلة في شيخ القبيلة وأهل الحل والعقد" كبار الجماعة ".

*.القصر والممثل في الجماعة "تجماعت" وهو على شكل مجلس استشاري وتنفيذي.

*.الزاوية والممثلة في شيخ الزاوية أو مقدم الطريقة الصوفية.

إذا كان التنظيم الاجتماعي عند القبائل البدوية قد بُني على أساس بنية القرابة المحددة بالنسب الأبوي، فإنّ ما ميّز سكان الأمازيغ داخل القصور والواحات هو نمط السكن والتراتب الاجتماعي حيث يتجمع السكان داخل القصر في اتحادات أبوية، وتختلف هذه التجمعات في بنيتها حسب الطبقة الاجتماعية المعنية، والقرابة العائلية فيها لا تتعدى أسوار القصر.

تباينت طبيعة العلاقة بين قبائل المجتمعين " البدوية والقصورية" من منطقة إلى أخرى واختلفت من فترة إلى أخرى، فقد تطورت من السطو والصراع والغزو والحروب إلى التبعية والخضوع، ثم التحالف والتعاون والتبادل والمصاهرة والاختلاط، مما أضفى على العلاقة بين ساكنة القصور والقبائل الرحل نوعا من عملية التأثر والتأثير. كما أنّ تبادل المصالح والتهديد الدائم الذي تضغط به كل قبيلة على أخرى[3] ساهم بشكل كبير في تحالف وتماسك بعض القبائل. أمّا داخل القبيلة الواحدة فإنّ الرابطة الدموية أي القرابة بالرحم هي الأقوى في تحقيق هذا التماسك الاجتماعي.[4]

بالإضافة إلى روابط أخرى تجعل من القبيلة كتلة متلاحمة، فالقبيلة هي في الأساس مبدأ تنظيمي يحدد الأطر العامة للعضوية في الجماعة حسب تراتبية تنظيمية، وهي رابطة وحدة الغرض مبنية على التحالف بقدر ما هي مبنية على النسب و(القربى)[5]، والشيء الذي يُوحد القبيلة قبل كل شيء هو إرادة الاستقلالية تجاه السلطة المركزية والخوف من الخطر الخارجي.[6]

كانت مسألة الاستقلالية السياسية عاملا مُشجّعا على الانقسامية والصراعات القبلية لكنّ وجود مؤسسة الزاوية في الصحراء كمعوّض حقيقي لغياب السلطة المركزية أدّى إلى تراجع حدّة الصراعات

---

3 - Favret-Saada Jeanne.(1966) La segmentarité au Maghreb. In: L'Homme, Tome 6 N°2. P.105 (PP. 105-111). http://www.Persee.fr/web/Revues/home/Prescript/article/hom_

4 - Jacques Berque, op.cit, P.264. (PP.261-271.

5 - حسين غباش،(2010)، الجذور الثقافية للديمقراطية في الخليج:الكويت،والبحرين، تاريخ الشعوب الصغيرة، دارالفرابي، بيروت-لبنان، 231 صفحة، ص.22.

6 - Favret-Saada Jeanne. op.cit, P.107.

المجلد الحادي عشر/ العدد الرابع / 10 أفريل 2020 ISSN: 1112-8518, EISSN: 2600-6200

القبلية التي اتسمت في أغلب حالاتها بالدموية والدمار. فكانت المؤسسة الدينية مثل مختلف المؤسسات والتنظيمات تلعب دورا في تلاحم المجتمع[7]، وتمكنّت هذه المؤسسة من فرض تقاليد اجتماعية جديدة، أما من الناحية الدينية فإنّ هذه الطرق وزواياها كانت الوعاء الروحي لسكان الجزائر، فكانت تُمثّل في نظرهم المرجعية الدينية الصحيحة فضلا على أنّها كانت تحتضن المنظومة التعليمية، وتمتلك سلطة فعلية تعدّت حدود البلاد، وكانت المؤسسة الوحيدة القادرة على تجاوز حتى سلطة القبيلة والدولة، وخاصة إذا كانت الطريقة-الزاوية قوّية من الناحية المادية والعددية.

وهكذا جمعت مؤسسة الزاوية بين العلم والمال والقداسة، مما ساعدها على تشكيل مركزية قوية شبيهة لما عرفته مؤسسة الكنيسة في المرحلة الإقطاعية، فالمكانة التي تمتعت بها مؤسسة الزاوية جعلت منها قبلة لكلّ سكان القصور والقبائل المحيطة بها وحتى البعيدة عنها جغرافيا، وهذا ما نلمسه في الدور الذي كانت تلعبه زاويا الطرق الصوفية التي تقاسمت جغرافية الجنوب الغربي: الشيخية والقندوسية والكرزازية[8] إضافة إلى الطريقة الطيبية التي كان تأثيرها أكبر في إقليم توات. وفي الجنوب الشرقي تنشط العديد من الطرق الصوفية غير أنّ أكثرها تأثيرا على السكان نجد: القادرية نسبة إلى سيدي عبد القادر الجيلاني بورقلة ووادي ريغ، التيجانية التي تُنسب إلى مؤسسها سيدي أحمد التيجاني وتُهيمن على إقليم بوادي سوف...

وعلى الرغم من تباعد مراكزها لشساعة هذا الإقليم إلاّ أنّ تأثير كل هذه الطرق الدينية كان منتشرا في كلّ الإقليم، ولم يكن لكل زاوية حدود ومجال جغرافي خاص بها، فإنّ خاصية تنوّع الطرق وكثرة مراكزها طبع الحياة الدينية للمجتمع الصحراوي، فالتعددية الطرقية كانت مسموح بها داخل القبيلة أو القصر، بل حتى في وسط العائلة الواحدة، فالاحترام متبادل بين أتباع الطرق الدينية على اختلاف مشاربهم كان منتشرا، لأن قداسة وهيبة كل طريقة من قداسة مثيلاتها.

عرف المجتمع المحلي إلى غاية النصف الأوّل من القرن العشرين تقسيمين أساسيين ارتسمت من خلالهما الصورة العامة لتراتبية المجتمع، وتصنيفاته البنيوية، حيث نجد أنّ التقسيم البنيوي للمجتمع القبلي سواء تعلق الأمر بالقبائل البدوية أو الحضرية خضع التراتب الاجتماعي فيه إلى تداخل مجموعة

7 - Mohamed Ait Hamza, Op.Cit. P.17.

8 - تنتسب الموساوية أو الكرزازية إلى الشيخ سيدي أحمد بن موسى(1492م - 1604م) ومركزها الأم بكرزاز، والشيخية أو البوشيخية إلى الشيخ سيدي عبد القادر بن محمد السماحي البوبكري (1533م - 1616م) نسبة إلى أبي بكر الصديق وهو حفيد سيدي سليمان بن أبي سماحة، تعد مدينة الأبيض سيدي الشيخ ولاية البيض مركزها الأساسي. وأمّا الزيانية القندوسية نسبة إلى مؤسسها الشيخ سيدي أمحمد بن أبي زيان القندوسي (1650-1732) ومقرّها بالقنادسة ولاية بشار. تفرّعت معظم هذه الطرق الصوفية خلال الفترة الحديثة من الطريقة الشاذلية أي أن جلّهم سلك على طريقة أبي الحسن علي بن عبد الله الشاذلي(ت656هـ/1258م) من طريق سيدي أبي العبّاس أحمد بن يوسف الراشدي النسب دفين مليانة بالجزائر(ت927هـ/ 1520م)، إما بواسطة أو بدونها. ينظر: برشان محمد،(2015)، الحياة الاجتماعية، الاقتصادية والثقافية بمنطقة بشار (1904 – 1962)، دار أمّ البراهين، الجزائر، ص.342.

المجلد الحادي عشر/ العدد الرابع / 10 أفريل 2020 ISSN: 1112-8518, EISSN: 2600-6200

من العوامل التي تتحكم في تصنيف المجتمع إلى طبقات، ومن خلال ذلك حُددت مكانة الفرد في السلم الاجتماعي الذي ينتمي إليه. ويُعدّ الدين من أهم تلك العوامل خصوصا إذا علمنا بأنّ المنطقة كانت تضُم جاليات يهودية، ثم يأتي عامل الأصول والنسب: شريفي، مرابطي. كما تُؤثر طبيعة الفرد في حد ذاته ووضعيته داخل المجتمع الذي ينتمي إليه ويعيش بين أفراده الآخرين فقد يكون الفرد حرا أو عبدا.

كما قد يكون تاجرا من النبلاء وقد يكون فلاحا من البسطاء. وهنا يجب تحديد التباين الموجود بين التصنيف "Classification" وبين التميز""Discrimination، فالتصنيف لا يتعارض مع المساواة عند المسلمين، لأن الإسلام يدعوا إلى المساواة بين الناس أجمعين، كما أنه يدعو في نفس الوقت إلى إسقاط كل معاني التفاضل القائمة على العرق واللون والقبيلة، لكي لا يبقى سوى الإيمان والعمل الصالح مقياسا للتفاضل بين المسلمين ويتجلى ذلك في قوله تعالى:"يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُم"[9].

في كثير من الحالات تتجمع هذه السيمات والخصائص الاجتماعية في الفرد الواحد داخل المجتمع، تحديدا ذلك الفرد الذي تنحدر أصوله من الأسرة الشريفة، وهذا لا يعني البتّة بأنّ الهرم الطبقي لأيّ مجتمع يظّل ثابتا في صورته النمطية ولا يتغيّر، بمعنى يبقى رهينا للصفة التي تُحددها العوامل السابقة، فقد تطرأ ظروف استثنائية داخل المجتمع تجعل الفرد فيه يرتقي من طبقة إلى أخرى تكون أحسن تصنيفا ودرجة من الطبقة التي نشأ فيها بأشكال مختلفة.

عند دراستنا لهذا النظام التسلسلي الذي خضع إليه أفراد المجتمع في الصحراء استخلصنا بأنّ الهرم البنيوي للمجتمع تدرّج من القمة إلى القاعدة على ستّ طبقات تختلف من حيث النسب والوظيفة، وهذه الطبقات حسب الترتيب المذكور مُكوّنة من: الأشراف – المرابطون – العوام – الحراطين – العبيد – اليهود.[10] إذ احتلّ الأشراف والمرابطون من حيث الترتيب النظري والمعنوي قمّة الهرم الاجتماعي داخل المجتمعات القصورية والواحية، وهنا يُؤدي عامل القرابة دورا مهما في شعور كلّ فئة بانتمائها السلالي، ومن ثمّ تزداد حدة التفاخر بالنسب بين كل الطبقات.

2- السياسة الاستعمارية:

ارتبطت السياسة الاجتماعية للاستعمار الفرنسي في الصحراء الجزائرية بإستراتيجيته العامة والتي تمحورت في الأساس على "مبدأ فصل الصحراء" عن الشمال الجزائري، من ثمّ فقد وظفت كلّ الوسائل السياسية والقانونية لتحقيق هذا المسعى بدء من إنشاء الأقاليم العسكرية بالجنوب وإخضاع سكانه للنظام العسكري، وانتهاء بتطبيق سياسة اجتماعية خاصة تتماشى وخصوصية المجتمع وبيئته

[9] – الآية 13 من سورة الحجرات.

[10] - برشان محمد، الحياة الاجتماعية، الاقتصادية، المرجع السابق، ص.143.

المجلد الحادي عشر/ العدد الرابع / 10 أفريل 2020 ISSN: 1112-8518, EISSN: 2600-6200

بالصحراء، وتختلف في أسسها عن تلك التي طبقتها في الشمال. فما هي المعالم والأسس التي ارتكزت عليها هذه السياسة؟ وما هي الانعكاسات المترتبة عنها ؟

***- القبيلة بين التفكيك والتكييف:**

تمحورت سياسة السلطة الاستعمارية في بداية احتلالها للصحراء حول سبل استمالة رجالات القبائل وشيوخها الرافضين الخضوع تحت سلطتها، وذلك باستخدام كل الوسائل السلمية لتحقيق السلم الاجتماعي حفاظا على وحدة القبيلة، خصوصا وأنّ غالبية القبائل الكبرى بالمنطقة الصحراوية كانت فروعها موزعة بين الحدود الجزائرية، وبالتالي فإنّ بقاء أي فرع للقبيلة خارج نطاق السيطرة الفرنسية يُعدّ تهديدا لها، ويُسبب مشاكل دائمة لوجودها في المنطقة، ويُصبح معقلا خلفيا لدعم ومساندة أي انتفاضة أو مقاومة قد تحدث بالمناطق المستعمرة، ومن ثمّ نستطيع القول بأنّ الإبقاء على استمرارية القبيلة على الأقل في المرحلة الأولى من الاحتلال هو في الحقيقة تذويب للمقاومة.

فإذا كان القضاء على التنظيم القبلي بشمال البلاد تدبيرا ضروريا خلال الفترة الكولونيالية، إلاّ أنّه لم يكن كذلك في أقاليم الجنوب، فالإدارة الاستعمارية في بعض مناطق الهضاب العليا والصحراء عملت بكلّ قُوّة للمحافظة على تواجد القبيلة ككيان مع إذكاء الصراعات القبلية وتفاقمها بشكل يُسهل عملية مُراقبتها[11]. لأنّ السلطات الاستعمارية كانت قد أدركت عبر مُنظّري سياستها الخارجية تلك التناقضات البينية الموجودة بين القبائل الجزائرية في الصحراء، ومحاولة استغلالها في إطار ما يُعرف بـ "احتكاك المتضادين" بمعنى تجميع مجموعة من القبائل تختلف من حيث المنشأ والأصول في أوامر مختلفة. وهو ما نلمسه من قول "سيروكا" حيث يقول:" إنّ معرفة خلفيات العائلات الرئيسية في هذه البلاد "الجزائر" وعداواتهم وصدقاتهم وثاراتهم تجعلنا قادرين أكثر على حكمهم، كما أنّ معرفتنا عن كثب لتاريخ البلاد المغلوبة تقينا غالبا من الوقوع في الخطأ".[12]

إنّ الاستعمار الفرنسي لم ير في النظام القبلي بأقاليم الجنوب عائقا يحدُ من سلطة الإدارة الاستعمارية بقدر ما كانت تُمثله الزوايا وانتماءاتها الطرقية، وشبكاتها الاجتماعية والتي يمكنها أن تُنظّم

11- Yazid Ben Hounet, L'Algérie des Tribus. Le Fait Tribal dans le Haut Sud - Ouest Contemporain, Paris, L'Harmattan. 2009. P.75.

تنّهت السلطة الاستعمارية إلى الصراع الناشب بين فرعي أولاد بوعنان، وأولاد بلكيز المنضويين في قبيلة ذوي المنيع بمنطقة وادي قير ببشار سنة 1881 بسبب مسألة الثأر، فسارعت إلى تغذيته وتوسيع دائرة الخلاف بين الطرفين الأمر الذي ساهم في تقويض التحالف الداخلي للقبيلة أي – حلف خمس أخماس – خصوصا بعد فشل كلّ محاولات الإصلاح التي أشرفت عليها الزاوية الزيانية بسبب تعقد جذور هذا الصراع واستناده على مسألة الأخذ بالثّأر من جهة، وتدخل أطراف خارجة عن إطار القبيلة فيه، حيث تحالف خمس أولاد بلقيز مع فروع من قبائل أولاد جرير وبني قيل.ينظر:

-De la Martiniere et la Croix (N), op.cit. T II, P. 693.

12 - عميراوي احميدة، زاوية سليم، قاصري محمد، السياسة الفرنسية في الصحراء الجزائرية 1844 – 1916، دار الهدى، الجزائر، 2009. ص.145.

المجلد الحادي عشر/ العدد الرابع / 10 أفريل 2020 ISSN: 1112-8518, EISSN: 2600-6200

مقاومات فعالة للاحتلال[13]. وفي المقابل لم تدخر السلطة الاستعمارية في إقامة الدليل على أنها تستطيع مصادرة وتدمير بساتين النخيل، وأنظمة السقي وحقول الزرع أو المواشي، والتسبب في كارثة لأيّة قبيلة أو جماعة قصر تختارها لتنفيذ هذا الوعيد.[14] كما فعلت مثلا مع قبائل أولاد جرير في منطقة بشار بالجنوب الغربي الجزائري، حيث جرّدتهم من ممتلكاتهم بوادي زوزفانة.

سعيا منها لاختراق الطابع القبلي منطقة لجأت السلطة الاستعمارية كذلك إلى توظيف بعض العائلات والشخصيات التي حظيت بمكانة بين قبائلها، والتي توفرت فيها مجموعة من صفات القيادة والطموح، والمهارة والذكاء. لتُشكل واسطة بينها وبين تلك القبائل الرافضة للخضوع والاستسلام لسلطات الاحتلال، وأوكلت لها مهمة جباية الضرائب، مقابل حصولهم على جملة من الامتيازات، والألقاب التي تليق بمقامهم كقادة للقبائل، أو شيوخا للقصور، ومن ثمّ حوّلتهم إلى أعوان للإدارة الاستعمارية[15].

بذلك أحدثت مناصب سيادية جديدة كمنصب القايد والآغا والباشاغا، فعينّت على رأس كل قبيلة أو قصر قايد، وأحيانا لا يكون من الوجهاء أي من كبار الجماعة، ولا يملكون بالضرورة السلطة الكافية، وفي حالات عدة كانوا غرباء تماما عن القبيلة. فأصبحوا وبصورة تدريجية وكلاء إداريين بسيطين بعد تعطيل قيود السلطة القبلية وإعادة تشكيلها. يساعد القايد في تسيير شؤون القبيلة مجلس (جماعة) مُكوّن من الأعيان. والشيء الخطير من وراء هذا الإجراء أنّه خلق مركزية جديدة منافسة وبديلة لمركزية الزاوية، التي كانت تُمثل مركزا وقاعدة لأيّ حراك يقوم به سكان المنطقة. من الشخصيات التي ارتقت إلى مناصب عليا في سُلم التشريفات التي منحتها السلطة الاستعمارية لقادة القائل تكريما لجهودهم في خضوع القبائل وتثبيت هياكل الإدارة الاستعمارية، تبرز شخصية محمد الصغير بن قانة الذي تقلّد منصبي والآغا والباشاغا في منطقة بسكرة. وفي الأخير منحت السلطة الاستعمارية لقب شيخ العرب.[16]

وهو نفس الدور الذي لعبه الباشاغا محمد بن ميلود المعروف بـ"سي مولاي" شيخ الطريقة اليوسفية في منطقة العين الصفراء .وكان قد تقلّد مناصب عديدة، ففي 27 سبتمبر 1898 عيّن كقائد القادة (قايد القياد)، وفي 03 فيفري 1900 تمّت ترقيته إلى"آغا". ثم خلفه ابنه في هذا المنصب إلى غاية اندلاع الثورة التحريرية.[17]

13- Yazid Ben Hounet, Op.cit. P.62.

14 – روس دان، المرجع السابق.ص.265.

15-Yazid Ben Hounet, Op.cit. P.63. Voir aussi: - Mercier Ernest, L'Algérie En 1880, Challamel Aine, Paris, 1880, P.48.

16 - عميراوي احميدة، نفس المرجع. ص.142.

17 - ولد الخلادي بن ميلود (1896 - 1991) بقصر تيوت دائرة العين الصفراء، زاول تعليمه الثانوي بوهران، رجل مثقف بالعربية والفرنسية جمع بين مهامه الإدارية كآغا لسكان القصور والعمور سنة 1932م ثم تقلّد لقب باشاغا سنة 1938م ليُعيّن ويثبت رسميا في ذلك المنصب في 22 ماي 1942م. كما تقلّد مهمة الزعيم الروحي للزاوية اليوسفية التي تُنسب إلى مؤسسها الشيخ "سيدي أحمد بن يوسف الملياني"، من مميزاته الفضول، الحذر، الواقعية والفكر الليبرالي. كانت له علاقات طيبة ومباشرة مع فرحات عباس الذي زاره في مقر سكناه بتيوت. اختير

المجلد الحادي عشر/ العدد الرابع / 10 أفريل 2020 ISSN: 1112-8518, EISSN: 2600-6200

ومن هذا المنظور يمكن فهم موقف السلطة العسكرية الفرنسية ممثلة في المارشال ليوتي- Lyautey قائد الإقليم العسكري للعين الصفراء مع سياسته تجاه الزاوية الزيانية، وذلك بتهميشها وإضعاف سلطتها الروحية بتقوية سلطة دنيوية جديدة كبديل لها، والممثلة في شخص القايد الذي كان يمثل الحلقة الأساسية لهذه السلطة، فهو أداة رقابة عسكرية وإدارية، فهو صمام أمان للاستقرار الاجتماعي.[18]

كما شكّلت القبيلة بالنسبة للاستعمار نموذجا أساسيا في تحقيق التوازنات الداخلية، لذلك لم يعمل على إضعاف بنيتها وتركيبتها. لكنّه وفي المقابل وظّف التناقضات القبلية كلّما كان ذلك في صالحه، مستثمرا هذا البعد عبر دمج بعض الأفراد من القبائل الصحراوية ضمن مؤسسات شبه عسكرية تتكيّف مع بيئة الصحراء عُرفت بالكتائب الصحراوية- Compagnies Sahariennes أو المخزن وبعرف عناصرها بالمخازنية. تكونت وتألفت هذه المؤسسة من مُجنّدي القبائل المتعاونة مع السلطات الاستعمارية، وكانت مُقسّمة إلى وحدتين: وحدة المشاة، ووحدة الخيالة والفرسان، استغلها القادة العسكريون في ملاحقة رجال المقاومة أو القبائل المناوئة لفرنسا، وكانت أوّل كتيبة صحراوية قد أنشئت بإقليم توات سنة 1902.[19]

***- الصراعات العرقية وفكّ ارتباط القبيلة بالزوايا:**

حاولت الإدارة الاستعمارية تغيير العلاقات القبلية وإضعاف ارتباطاتها مع الزاوية باعتبار أنّ الأخيرة مثّلت السلطة الروحية للمنطقة سواء كان ذلك لدى السكان المستقرين بالقصور أو السكان الرحل، وكانت محور تنظيماتها الاجتماعية. كما لعبت دورا هاما في استقرار العلاقات القبلية وفض نزاعاتها، كما كانت تقوم بحماية سكان القصور والواحات من غطرسة وتشدد القبائل الرحلية،[20] وهذا أمر طبيعي لأنّ الزاوية ومقرها من ضمن مؤسسات القصر فاستقرار القصر، وانتشار السكينة به من أولويات هذه المؤسسة الدينية، فكلّ خلل داخل القصر هو مساس بسلطتها وقداستها.

فالسلطة الاستعمارية كانت تدرك أن القبيلة هي مصدر الخطر، وأنّ الرابطة القبلية إن ظلت تؤازرها القيم الروحية فإنّها تقضي على الوجود الفرنسي، ولذا كانت الزوايا والطرق الدينية الصحراوية هاجسا للسلطة الكولونيالية، التي حاولت إزالتها أو على الأقل مراقبتها[21]. كما تمّ ربط انتماء القبائل الرحل بالقصور في إطار مبدأ "احتكاك المتضادين" من أجل إيقاظ الكراهية القديمة. وبهذا التدبير يمكن مراقبة

سيد الخلادي من طرف الإدارة الفرنسية كمُرشح للجمعية الوطنية سنة 1946م...ينظر: محمد برشان، النشاط السياسي وبدايات العمل الثوري بمنطقة العين الصفراء (1942- 1956)، الجزائر، دار المحابر، 2012.ص.37.

[18] - برشان محمد، "سياسة الجنرال ليوتي Lyauty بالجنوب الغربي الجزائري" '(1903-1908)، مجلة دراسات إنسانية واجتماعية، جامعة وهران. العدد 08، جانفي 2018.ص. 239.

[19] - Armaud (E), Cortie (M), (1908).Nos Confins Sahariens, Etude D'organisation Militaire, Paris. P.77.

[20]- Commandant H. Bissuel, Le Sahara français, Conférence sur les Questions Sahariennes, A. Jourdan (Alger), 1891, P.10.

[21] - Yazid Ben Hounet, op.cit. P.64.

المجلد الحادي عشر/ العدد الرابع / 10 أفريل 2020 ISSN: 1112-8518, EISSN: 2600-6200

قبائل المنطقة وإذكاء التناقضات بين القبائل الرحل ذات الأصول العربية وسكان القصور ذوي الأصول الأمازيغية[22].سعى الاستعمار بكلّ الوسائل المتاحة إلى تعزيز هذه القطيعة المفترضة بين البدو وسكان القصور، أو بين الريف والمدينة. وكثيرا ما تبرز القصور والواحات الصحراوية في الكتابات الاجتماعية الكولونيالية كقلع معزولة وحصون تحاصرها القبائل البدوية من كلّ جانب.

ففي منطقة العين الصفراء مثلا أُدمجت قبائل "العمور" البدوية **الرحلية** وقبائل "القصور" الأمازيغية تحت قيادة الأغا "سيد الخلادي". وفي سنة 1934 ضُمّت قبيلة الصوالة وهي من العمور إلى قصر تيوت الأمازيغي، وقبيلة "أولاد بوبكر" إلى "قصر صفيصيفة"، وقبيلة أولاد سيدي أحمد المجذوب" التي تعود أصولها إلى قبيلة أولاد سيد الشيخ إلى قصر عسلة. وفي 1849 تخلى أولاد سيدي أحمد المجذوب المعروفين بـ "المجاذبة" عن "سي حمزة" قائد أولاد سيد الشيخ الشراقة، وانضموا إلى "سيدي الشيخ بن الطيب" زعيم أولاد سيدي الشيخ الغرابة الذي رفض الاحتلال الفرنسي.[23]

وفي الجنوب الشرقي الجزائري ولمّا ازدادت شكوك السلطات الاستعمارية في ولاء عائلة بوعكاز بن قانة في منطقة بسكرة والأوراس عمدت إلى إضعاف قائدها محمد الصغير بن قانة، وذلك بتقسيم الزاب الغربي إلى العرب الشراقة والعرب الغرابة بهدف تضييق الخناق على بن قانة ومراقبة سكان المنطقة، وأنشأت قيادة جديدة في شمال بسكرة تمثلت في قيادة السحاري بزعامة بولخراص بن قانة.[24] التقسيم نفسه أي "شراقة وغرابة" شمل القبائل الكبرى في الجنوب الغربي الجزائري مثل: حميان الغرابة والشراقة، أولاد سيد الشيخ الغرابة والشراقة، العمور الغرابة والشراقة...إلاّ أنّ الفارق يكمن في بقاء قبائل الغرابة في الجنوب الغربي تحت سلطة المخزن إلى اليوم.

وفي المجال القضائي لجأت السلطة الاستعمارية إلى تنظيم المنظومة القضائية تنظيما استثنائيا ومعقدا في إطار القضاء العسكري المكرّس للقمع والتعسف وكان الهدف الأساسي من ذلك كلّه إحكام القيْد على المناطق الصحراوية، والعمل على قهر سكانها باسم القانون من جهة. وعزل سكان الجنوب وفصلهم عن المناطق الشمالية بشكل ممنهج ومقنّن وكذا محاولة إحلال التصور الغربي الحدثي لنظام القضاء محلّ التصور المحلي المتشبع بالثقافة الإسلامية من جهة أخرى. وفي إطار تكريس السياسة الطائفية قامت السلطة الاستعمارية وبحجة التنّوع الإثني الموجود في الجزائر بتنظيم المحاكم الإسلامية تنظيما معقدا بحيث تنوعت اختصاصاتها وفق التقسيم التالي:

1-الإقليم المدني في الشمال ماعدا منطقة القبائل التي ألغيت فيها المحاكم الإسلامية، واستبدت بجماعات أهلية عرفت بالجماعات القضائية، وحكمت وفق العرف دون الدين.

22 - Yazid Ben Hounet, op.cit. P.64.
23 - Ibid.P.66.
24 - عميراوي احميدة، نفس المرجع. ص.142.

المجلد الحادي عشر/ العدد الرابع / 10 أفريل 2020 ISSN: 1112-8518, EISSN: 2600-6200

2- منطقة القبائل.

3- الأقاليم العسكرية في الجنوب التي خضعت للمحاكم العسكرية.

4- المحاكم الإباضية رغم وقوعها في الإقليم العسكري.[25]

***-تدجين الزوايا وإعادة تشكيلها:**

إنّ هذه المكانة التي تبوأتها الزوايا بالصحراء كمؤسسة حضارية شاملة، جعلتها تصب في الدراسات الكولونيالية، ووضعتها في أكبر اهتمامات الحملات الاستكشافية، والتي عملت وبتوجيه من السلطات الاستعمارية العليا على محاولة اختراق مضمونها التركيبي والعقائدي بهدف احتوائها وتدجينها.

وفي سبيل تطبيق تلك الأهداف كثّفت السلطات الكولونيالية من حملاتها الاستكشافية على المناطق الصحراوية منذ بداية القرن التاسع عشرة، وصُنّفت الدراسة التي قام كلّ من: Deport Octave وXavier Cappolani من أهمّ الدراسات التي خدمت السلطة الكولونيالية في تعاملها مع زوايا المنطقة، حيث تضمن التقرير الذي خلص إليه المستكشفين، وهو على شكل توصية قُدّمت إلى الحكومة الفرنسية، أكدا من خلالها على ضرورة الاندماج مع الزوايا من أجل تحقيق بعض المكاسب الإستراتيجية لخّلصاها في النقاط التالية:[26]

*- جعل الزوايا وباقي المؤسسات الدينية الأخرى تحت وصاية ومراقبة السلطات الفرنسية.

*- النفاذ إلى عقول الأهالي، وتهميش دور الزوايا من خلال إقامة مؤسسات اجتماعية وتربوية تضاهيها، وموازية لنشاطها التعليمي والاجتماعي.

*- العمل على توظيف الزوايا التي تملك فروعا لها في البلدان الإفريقية والدول المجاورة للجزائر كوسيلة لتحقيق التغلغل التجاري والديني والسياسي.

3- انعكاسات السياسة الاستعمارية:

لم تكن سياسة إذكاء الحروب وتغذية الصراعات بين القبائل السبب الحاسم في التفكيك القبلي ولكنّها أدّت إلى تغيير في موازين القوى بين القبائل[27]. إذ حققت هذه السياسة نجاحات نسبية مع نهاية القرن التاسع عشرة، فالقبائل السيّدة أو ما تُعرف بقبائل الجواد أو الأرستقراطية اندثرت كليا أو تمّ إضعافها، وكذا "العائلات الشريفة" والمرابطية."[28] وكمثال على ذلك نذكر قبيلة أولاد سيد الشيخ المرابطية "Maraboutique" التي تبوأت مكانة مرموقة بفضل ما تملكه من قداسة، ورصيد روحي خلال فترة الحكم العثماني بالجزائر. ومع الاعتراف التام بفضل ومكانة أولاد سيد الشيخ تاريخيا

---

[25] - فارس رشيد، نفس المرجع، ص. 44.

[26] - Deport (O), Xavier (c), Op, Cit, P. 282.

[27]- Yazid Ben Hounet, « Des tribus en Algérie ? », Cahiers de la Méditerranée [En ligne] , 75 | 2007mis en ligne le 21 juillet 2008, Consulté le 15 avril 2011.URL: http:// cdlm.revues.org/index 4013.html.

[28]- Yazid Ben Hounet, « Des tribus en Algérie ? », Ibid.

المجلد الحادي عشر/ العدد الرابع / 10 أفريل 2020 ISSN: 1112-8518, EISSN: 2600-6200

واجتماعيا وسياسيا، فإنّ شبه الإمارة التي حظي بها هؤلاء كانت محدودة في المكان، وفي الدور الذي لعبته على حسب الظروف التي مرّت بها، وإذا استثنينا المراحل الأولى لهذا الكيان أو الكونفيدرالية إلى غاية مقاومة الشيخ بوعمامة، فإنّ أولاد سيد الشيخ انتهوا بعد أن استهلكهم الصراع البيني على السلطة والنفوذ (أولاد الشيخ الغرابة، أولاد الشيخ الغرابة الشراقة)، انتهوا إلى ما يمكن تسميته (تدجينا- Domestication)، ولم يبال الاستعمار بعد ذلك من الشكل "Forme" الفولكلوري الذي أصبحوا عليه، وأظهر خصائصه هي الركب والوعدة...، حيث غاب الدور القيادي في التنوير والتربية والتعليم.

والحكم نفسه يمكن إسقاطه على الزاوية الزيانية حيث تمكنّ الاستعمار من تقويض مهامها وتسبّب في انحرافها عن الدّور الريادي الذي دأبت على تقديمه للمجتمع في منطقة بشار، بعد أن حوّلها من مُؤسسة حضارية تُحقق علاقة مُتفاعلة بينها، وبين كلّ شرائح المجتمع إلى مجرّد هيكل فاقد الرُّوح والحركة. وتحوّلت الأملاك التي كانت من قبل حبسا على الزاوية إلى مُمتلكات خاصّة يتصرّف فيها الشيخ المُوّلى وعائلته...الأمر الذي فتح باب النزاعات والصراعات بين أفراد الأسرة الزيانية على تقاسم تلك الممتلكات والتركات.

وبذلك تمكنّت الإدارة الاستعمارية من القضاء على السلطة القبلية والروحية الموروثة. والتي كانت أساس بنية الهرم الاجتماعي للمجتمع الجزائري، فالقبيلة لم تكن نمطا للتنظيم الاجتماعي فقط بل كانت مجموعة سياسية أو وحدة سياسية مستقلة[29]، وقد تباينت قُوّة وهيبة كلُّ قبيلة حسب مكانتها وعلاقاتها والدور الذي تلعبه مع القبائل الأخرى، من خلال تخصصها في بعض الوظائف الاقتصادية، السياسية والدينية[30].

نجحت الإدارة الاستعمارية في المناطق الشمالية للجزائر من القضاء على السلطة القبلية التي كانت أساس بنية الهرم الاجتماعي للمجتمع الجزائري بصفة عامة من خلال مصادرة الأراضي وإلغاء الملكية الجماعية" المرسوم المشيخي 1863، قانون وارني 1873).... ونتج عن ذلك زوال العصبية وتفتيت البنية الاجتماعية للقبيلة خاصة بعد ظهور عصبيات جديدة لا ترتبط بالقبيلة بل ترتبط بانتماءات وولاءات جديدة أهمها الحزب والجماعة الدينية ... إلاّ أنّه لم يكن كذلك في أقاليم الجنوب، فالإدارة الاستعمارية في بعض مناطق الهضاب العليا والصحراء عملت بكلّ قوّة للمحافظة على تواجد القبيلة ككيان.

الأمر الذي أدى إلى تجذّر ظاهرة العصبية القبلية- Tribalisme واستمرار ارتباطها بالتنظيم القبلي، خاصّة في صورتها الثقافية والوظيفية، حيث ما تزال القبائل الكبرى في الصحراء تحتفظ بقوّة عصبيّتها، وتتمسك ببنائها التقليدي، وبالمبادئ والقيّم التي يرتكز عليها التنظيم القبلي وتسير أنماطه.

[29]- Pierre Bonté, Edouard Conte, Constant Hamès, Abdel Wedoud Oul Cheik Al-Ansâb, la Quête des origines: Anthropologie historique de la société tribale arabe, Éditions MSH, P.16.

[30]-Ibid. P.16.

المجلد الحادي عشر/ العدد الرابع / 10 أفريل 2020 ISSN: 1112-8518, EISSN: 2600-6200

بمعنى أنّ الوحدة الاجتماعية للقبيلة ما تزال قوية وفاعلة رغم المتغيّرات السياسية، الاقتصادية والحدثية.[31]

فالمنطق القبلي أو العشائري أضحى المعيار الرئيس في تحديد شبكة العلاقات بين القبائل في الصحراء وغيرها من المناطق، بل كثيرا ما يتجاوز سلطة الدولة. ويعود ذلك إلى عملية إعادة بناء إنتاجها من لدن نخب القبيلة التي اعتلت مناصب سيادية في هرم السلطة، أو مراكز مرموقة في السلم الإداري للدولة، ومن ثمّ تظل المحاباة كمقياس للانتقاء والاختيار، والموالاة كمؤشر للتعبئة والتزكية. كما أنّ السلوك الفردي للمجتمع الصحراوي لازال سلوكا قَبليا بامتياز في شتى مجلات الحياة، وخاصة في المجال السياسي، حيث نجد القبيلة تحضر بكل ثقلها في تغليب الأحزاب والتيارات السياسية ووضع التحالفات، كما أن اختيار الأشخاص غالبا ما تلعب العصبية الدور الأكبر في وجوده.

ساهمت سياسة التمييز بين القبائل في إطارها الديني والقضائي إلى تكريس البعد الطائفي خاصّة وأنّ الوازع الديني بدأ يتهلهل، ويضعف تأثيره بسبب تنامي النزعة العصبية التي باتت تسود معظم المجتمعات، والقبائل الصحراوية التي أضحت ترتبط بالعصبية أكثر من ارتباطها بالدين. فكثيرا ما تحول الصراع بين "بني مزاب" و"الشعانبة" في الجنوب الجزائري مثلا وهما قبيلتين تختلفان من حيث انتمائهما الإثني والمذهبي: تنتمي الأولى إلى أصول أمازيغية إباضية، والثانية عربية مالكية إلى مواجهات دامية جراء العصبية القبلية المنبعثة من النزعة الدينية.[32] وهو ما يطرح مشاكل عويصة أمام بناء دولة قوّية، خاصة عندما تتحول العصبية من بعديها القبلي والديني إلى البعد الإيديولوجي، فينجر عن ذلك ظهور النزعات الاستقلالية والانفصالية.

إنّ الصلاحيات التي خوّلها القانون الفرنسي لرؤساء المسلمين من قياد وأغوات وباشاغات في ممارسة بعض الوظائف القضائية بالأقاليم العسكرية في الصحراء خاصة القرار الوزاري المؤرخ في 14 نوفمبر 1874 الذي ومكّن قادة القبائل ورؤساء "الأهالي" من فرض عقوبات على "الأهالي" بشرط أنّ لا تتجاوز ما

[31] - برشان محمد، السباعي سيدي عبد القادر، "القبيلة والسلطة الدينية في الجنوب الغربي الجزائري"، الملتقى الوطني الرابع، الصحراء الجزائرية: القبيلة والمجتمع المدني في الجزائر –مقاربة سوسيو تاريخية،28-29 نوفمبر 2017 ص.11.

[32] - بتاريخ 13 أوت 1961 كلّفت سلطات الاحتلال بمدينة ورقلة أحد عملائها بتدنيس جامع المدينة التابع للمالكية، وألصقت التهمة بالمزابيين الإباضيين الذين يسكنون المدينة وكان عددهم حوالي 600 نسمة، في حين بلغ مجموع السكان من 15000نسمة. وكان الهدف من العملية زرع الفتنة وإيقاظها بين المذهبين الإباضي والمالكي لأنّها أدركت حساسية المسألة المذهبية. تجدر الإشارة إلى أنّ المواجهة بين الطرفين اسمرت من 29 أوت 1961 إلى 19 سبتمبر من نفس السنة، وأسفرت عن سقوط العديد من القتلى والجرحى، إضافة إلى تعرض ممتلكات الإباضيين للتخريب والنهب. ينظر: ليلى تيتة، "فصل الصحراء الجزائرية عن الشمال: الواقع، الرهانات، والمآل، قراءة في تقرير فرنسي جويلية 1960 " مجلة المعارف للبحوث والدراسات التاريخية، عدد 02، ص.210.

المجلد الحادي عشر/ العدد الرابع / 10 أفريل 2020 ISSN: 1112-8518, EISSN: 2600-6200

يوقعه أو يفرضه القائد العسكري.[33] وكذا الامتيازات التي تحصلوا عليها بموجب السياسة الضريبية التي أوكلت لهم مهمة جمع الضرائب وتحصيلها من خلال القيام بجولات في القصور والواحات للتأكد ومراقبة المحاصيل الزراعية فيها مع إفادة السلطات بالمعلومات الكافية أدّت كمحصلة نهائية إلى تكوين طبقة ارستقراطية محلية، حيث تصدعت البنية الاجتماعية التقليدية بفعل تفاقم ظلم رؤساء "الأهالي" لأفراد المجتمع الذين استغلوا الامتيازات والمكاسب التي منحتها لهم السلطة الاستعمارية في تنمية ثرواتهم، والحفاظ على مناصبهم[34].

كما أدت سياسة الاستعمار في الميدان الاجتماعي خاصة ما تعلق بالهجرة الأوروبية إلى ظهور تقسيم جديد للسكان في الصحراء خاصة في مدنها الحديثة كمدينتي بشار وورقلة يعتمد على أسس عرقية ودينية، بعد أن اختفى التقسيم القديم الذي كان يُصنّف المجتمع على أساس طبقي تراتبي، وأصبحت السياسة الاستعمارية لا تفرّق بين المجتمع المسلم سواء انتمى فيه الفرد إلى طبقة الأشراف أو العبيد، وفي المقابل تركز التمييز على أساس الحقوق المدنية والسياسية بين الأوروبي واليهودي والمسلم. ومن ثمّ نستطيع القول بأنّ النسيج الاجتماعي الجديد في بعض المناطق الصحراوية عرف بعد الاستقلال اختفاء السُلّم التراتبي المبني على أساس التقسيم الاقتصادي فقد كانت هناك طبقة سيّدة مالكة للأراضي، وأخرى مُستغلة مُشكّلة أساسا من طبقة العبيد، التي عادة ما يشتغل أفرادها كعمال خماسين، أو بنظام الخمس لفائدة العائلات الكبرى، وأضحى الجميع بموجب قوانين الجمهورية يتمتع بنفس الحقوق والواجبات.

لم يكتف الاستعمار بتفكيك البنية الاجتماعية لسكان المنطقة وتفتيت شبكتهم التقليدية فحسب، بل عمل على إعادة بناء وتكوين جزئيين لقوى اجتماعية جديدة من خلال القضاء على النظام الفلاحي الذي مثّل نموذج الاقتصاد المحلي، والتركيز في المقابل على الصناعة الاستخراجية التي استقطبت أعدادا كبيرة من الأيدي العاملة المحلية، خاصة تلك التي فقدت أملاكها بعد الانحلال والتفكك التدريجيين التي تعرضت لهما قبائلهم في الريف. فقبائل أولاد جرير وذوي المنيع المنتشرة في الجنوب الغربي الجزائري والتي اتخذت من وادي زوزفانة وقير موطنا لها أجبرت معظم بطونها على النزوح إلى مدينة بشار بحثا عن فرص

---

[33]- وكان بإمكانهم بموجب القرار فرض حكم السجن في حالة التلبس بالجنحة أو لأسباب تهم النظام العام شريطة الإخطار الفوري للإدارة العسكرية، كما مكنهم القرار أيضا من تطبيق عقوبة الغرامة إلى غاية 20 فرنك ولا تنفذ هذه العقوبة إلاّ بعد موافقة مؤشرة من السلطة الاستعمارية ينظر:- فارس رشيد، المرجع السابق. ص.58.

[34] – ايف لاكوست، أندري نوشي، المرجع السابق، ص.398.

في 21 جوان 1918 أقرت المندوبيات المالية إلغاء الضرائب بالجزء الشمالي من الجزائر، بينما استمر العمل بها في أقاليم الجنوب إلى غاية سنة 1948. يضاف إلى تسديد الضرائب الفرنسية والعربية التي شملت الأرض والإنتاج والحيوان، العشور والزكاة كان سكان المنطقة والصحراء عموما يدفعون ضريبة على الأفراد عرفت ضريبة الرأس واللازمة، ينظر:

- Collot(C), Op, Cit, P.271.

– مياسي إبراهيم، توسع الاستعمار الفرنسي في الجنوب الغربي (1881-1912) منشورات المتحف الوطني للمجاهد، 1996، ص.143.

المجلد الحادي عشر/ العدد الرابع / 10 أفريل 2020 ISSN: 1112-8518, EISSN: 2600-6200

للشغل في مناجم الفحم بعد أن فقدت أخصب أراضيها، وانتزعت منها أملاكها وأموالها بشتى الوسائل حتى بلغ الفقر مبلغا لا يطاق. وفي الجنوب الشرقي تراجعت زراعة النخيل نتيجة توجه الأيدي العاملة للعمل في الشركات البترولية.

وفي مجال السياسة الصحية كثّفت السلطات الاستعمارية من حملات التطعيم والتلقيح للسكان المسلمين ضد الأمراض المعدية عبر المراكز الصحية المنتشرة في الصحراء، في مُحاولة من لاستمالة واستقطاب السكان إلى مؤسساتها والذين طالما رفضوا الاتصال والتقرب منها، فإن كانت هذه السياسة ذات بعد إنساني في شعاراتها وطرقها إلاّ أنّها اخفت في طياتها الفكرة الإدماجية. فقد كانت تُمثّل من الوجهة الاستعمارية أهمّ وسيلة لكسب وُدّ وثقة السكان المحليين.

لا يمكن التسليم بأنّ تلك المراكز قد نجحت في انتشال السكان من براثن الأمراض الفتاكة، خصوصا إذا علمنا بأنّ بعضا من تلك الأمراض له علاقة بقلة وسوء التغذية، وهي الحالة التي لازمت السكان طوال فترة الاحتلال هذا من جهة، ومن جهة أخرى كانت هناك أمراض دخيلة، وجديدة مُرتبطة بمجيء العنصر الأجنبي، والتي لم يكن يعرفها مجتمع المنطقة من قبل. وعلى صعيد آخر لا يمكننا أن نغفل تلك الجهود التي قام بها الطاقم الطبي رغم الخلفيات التي كان يحملها في ميدان التلقيح، والذي ساهم بقدر على الأقل في تراجع تلك الأمراض مقارنة عما كان سائدا قبل الاحتلال.

ومن جانب آخر فقد تأثر عمال المناجم صحيا بسبب الاستغلال المفرط خاصة أولئك الذين كانوا يعملون في الأعماق تحت الأرض، وتعرض الكثير منهم لحوادث قاتلة وإصابات خطيرة، ناهيك عن إصابتهم بأمراض مزمنة خطيرة، كالأمراض الصدرية خاصة مرض " السليكوز Silicose " ومرض السلّ، خاصة وأنّ الإمكانيات المتوفرة آنذاك بالمنطقة لم تكن كافية للتكفل بكل المرضى من جهة، ومن جهة أخرى كانت تقتصر على رعاية الفرنسيين فقط. واستمرت مأساة هؤلاء العمال حتى الاستقلال وهلك الكثير منهم في صمت رهيب نظرا لغياب التكفل التام بتلك الأمراض.[35]

وفيما يخصُّ تأثير عامل الهجرة فقد ظلّ المجتمع المحلي في المناطق الصحراوية مرتبطا ارتباطا وثيقا بالزوايا والطرق الصوفية وتأثير شيوخها على السلوك الاجتماعي بدا واضحا من خلال ابتعاد أفراد المجتمع عن المؤثرات السياسية، وعزوفهم عن المشاركة في الأحزاب السياسية، ومع تزايد حركتي الهجرة والاستيطان خلال فترة الأربعينات من القرن الماضي في إطار تلبية حاجيات الشركات الاقتصادية الاستعمارية البترولية أو المنجمية من الأيدي العاملة المتخصصة، شهدت الصحراء تحوّلا هاما في تطوّر عقلية المجتمع ونمط تفكيره، حيث شارك العمال المحليون في الحركات النقابية والمنظمات الاجتماعية، وبالتالي تخلّصوا تدريجيا من رواسب الأفكار التقليدية التي كانوا يحملونها.

[35] -A.W.B. Rapport de M. André Augard, Secrétaire General de La Fédération Nationale des Mineurs, A le Ministre D'Etat Charge du Sahara, Le 10 juillet 1961.

المجلد الحادي عشر/ العدد الرابع / 10 أفريل 2020 ISSN: 1112-8518, EISSN: 2600-6200

كما نتج عن الاحتكاك والتقارب بين العمال الجزائريين والعمال الأوربيين تطورا في أفق الأفكار، ونمط الحياة الاجتماعية المحلية، حيث تشكّلت مع مرور الوقت طبقة اجتماعية جديدة تؤمن بالحرية الفردية والاستقلالية، وتنادي بفك الارتباط بكلّ القيود والوصاية والولاء للطرق الصوفية، كما أضحت هذه الطبقة أكثر قابلية لتقبل واحتضان الخطاب السياسي، وتبني الدعاية الحزبية.[36]

الخـاتمة:

في إطار تجسيد أهدافها الاجتماعية عملت السلطة الاستعمارية على إزاحة وتفكيك الهياكل والتنظيمات التي كانت موجودة من قبل لدى القبائل الصحراوية، حيث ترتب عن ذلك تفكك بناها الاقتصادية والاجتماعية الموروثة والمتعارف عليها، والتي كانت من عوامل تواجدها وتماسكها، وهذه الحالة المأساوية والحرجة أنتجت علاقة غير متوازنة بين المستعمَر والمستعمِر، فكانت علاقة غير متكافئة، وفريدة من نوعها واستثنائية من حيث طبيعتها.

إنّ التحوّلات الاجتماعية العميقة التي عرفها المجتمع في المناطق الصحراوية لم تتمّ في فراغ، فالظروف السياسية، والفكرية والاجتماعية التي مرّت بها المنطقة تحت نظام الحكم العسكري قد ساعدت على تبلور ملامح جديدة على مستوى البنية الاجتماعية، وأدّت في الوقت نفسه إلى اختفاء البعض منها خاصة ما تعلّق منها بمسألة التراتب الاجتماعي والتقسيم الطبقي، فالقبائل الأرستقراطية اندثرت كليا أو تمّ إضعافها، وكذا "العائلات الشريفة" والمرابطية فقدت مكانتها الاجتماعية والاقتصادية. وأما مؤسسات الزوايا فلم يبق من بعضها إلاّ الشكل الفولكلوري وأظهر خصائصه هي والوعدة، وربما الشعوذة ...، حيث غاب الدور القيادي في التنوير والتربية والتعليم، ومن ثمّ فقدت وصايتها على أفراد المجتمع بعد تراجع هيبتها وشعبيتها. وهنا نستثني ما تقوم به بعضها من جهود حثيثة في محاولة إحياء هذا الدور.

لقد ساهمت تلك التحوّلات في زحزحة أنماط الحياة البدوية في المنطقة بعد تطور المراكز الإدارية، وتقدّم المُواصلات، واستغلال حقول البترول ومناجم الفحم، وغيرها من العوامل التي أحدثت تغيرا كبيرا ليس في نمط عيش القبائل وجماعات القصور فحسب، بل على مستوى الأفكار والقناعات أيضا، على أنّ هذا التحوّل الاجتماعي حصل بشكل تدريجي وبطيء، لأنّ بعض المؤسسات التقليدية للمجتمع تكيّفت لمواجهة التحديات الجديدة. خاصة وأنّ السياسة الاستعمارية كانت تهدف إلى إعادة بنية التنظيم الاجتماعي للمجتمع في الصحراء حتى يسهل عليها فرض وتجسيد نُظمها وفق خلفياتها الحضارية والثقافية، وهذا ما أدى إلى مواجهات ثقافية بين الطرفين.

***- قائمة المصادر والمراجع:**

36 - Pigeot, Col, Monographie Politique du Territoire, D'Ain -Sefra, Exemplaire, N° 20/25 Colomb Bechar ,1953. P. 91.

المجلد الحادي عشر/ العدد الرابع / 10 أفريل 2020 ISSN: 1112-8518, EISSN: 2600-6200

أوّلا: المصادر بالعربية والفرنسية

1- Archives de LA Wilaya de Bechar. «Rapport de M. André Augard, Secrétaire General de La Fédération Nationale des Mineurs», A le Ministre D'Etat Charge du Sahara, Le 10 juillet 1961.Non Cote.

2-ايف لكوست، بريتان أندري، أندري نوشي، الجزائر بين الماضي والحاضر ترجمة اسطنبولي رابح وآخرون، الجزائر، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية. 1984

3-جورج مارسيه، بلاد المغرب وعلاقاتها بالمشرق الإسلامي في العصور الوسطى، ترجمة: مصطفى أبو ضيف أحمد، منشأة المعارف، الإسكندرية، 1991.

4- Armaud (E), Cortie (M), Nos Confins Sahariens, Etude D'organisation Militaire, Paris.1908.

5- Bissuel, H. Le Sahara français, Conférence sur les Questions Sahariennes, A.Jourdan, Alger, 1891.

6-Depont Octave, Xavier Cappolani, Les Confréries Religieuses Musulmanes, Alger, 1897.

7- De La Matinier, (H .M.P), Lacroix, (N), Documents Pour Servir a L'Etude Du Nord Oust Africain, T2, Gouvernement General De L Algérie, Alger, 1897.

8- Mercier Ernest, L'Algérie En 1880, Challamel Aine, Paris, 1880.

9- Pigeot, Col, Monographie Politique du Territoire, D'Ain -Sefra, Exemplaire, N° 20/25 Colomb Bechar ,1953.

ثانيا: المراجع بالعربية والفرنسية

10- برشان محمد، الحياة الاجتماعية، الاقتصادية والثقافية بمنطقة بشار (1904 – 1962)، دار أمّ البراهين، الجزائر، **2015**.

11- برشان محمد، النشاط السياسي وبدايات العمل الثوري بمنطقة العين الصفراء (1942- 1956)، الجزائر، دار المحابر، **2012**.

12- عميراوي احميدة، زاوية سليم، قاصري محمد، السياسة الفرنسية في الصحراء الجزائرية 1844 – 1916، دار الهدى، الجزائر، 2009.

13-غباش حسين، الجذور الثقافية للديمقراطية في الخليج:الكويت،والبحرين، تاريخ الشعوب الصغيرة، دارالفرابي، بيروت-لبنان، 2010.

14-روس أ.دان، المجتمع والمقاومة في الجنوب الشرقي المغربي 1881-1912، ترجمة أحمد بوحسن الرباط، مطبعة المعارف الجديدة ،2006.

15- مياسي إبراهيم، توسع الاستعمار الفرنسي في الجنوب الغربي (1881-1912) منشورات المتحف الوطني للمجاهد، 1996.

16- Collot,Claude, Les Installation De L'Algérie Durant La Période Coloniale (1830 – 1962), Offices des Publications Universitaires, Alger, 1987.

17-Jacques Berque, « Qu'est ce que Une Tribu Nord- Africaine ? », Dans Éventail De L'Histoire Vivante, Hommage a Lucien Febvre, Paris, 1953, P.P.261-271.

18-Pierre Bonté, Edouard Conte, Constant Hamès, Abdel Wedoud Ould Cheik Al-Ansâb, la Quête des origines: Anthropologie historique de la société tribale arabe, Éditions MSH.1991.

19- Mohamed Ait Hamza, Etude sur les Institutions Locales dans le Versant Sud du Haut Atlas, 2002.

20- Yazid Ben Hounet, **L'Algérie** des Tribus. Le Fait Tribal dans le Haut Sud - Ouest Contemporain, Paris, L'Harmattan. 2009.

ثالثا: المقالات والملتقيات

21- برشان محمد، السباعي سيدي عبد القادر، "القبيلة والسلطة الدينية في الجنوب الغربي الجزائري"، الملتقى الوطني الرابع، الصحراء الجزائرية: القبيلة والمجتمع المدني في الجزائر – مقاربة سوسيو تاريخية،28-29 نوفمبر 2017.

22- برشان محمد، "سياسة الجنرال ليوتي- Lyauty بالجنوب الغربي الجزائري" '(1903-1908)، مجلة دراسات إنسانية واجتماعية، جامعة وهران. العدد 08، جانفي 2018. ص.ص 237-252.

23- ليلى تيتة، "فصل الصحراء الجزائرية عن الشمال: الواقع، الرهانات، والمآل، قراءة في تقرير فرنسي جويلية 1960 " مجلة المعارف للبحوث والدراسات التاريخية، جامعة الوادي،عدد 02، ص.ص.186.212.

24-سعد طاعة،"البنية الاجتماعية والاقتصادية للريف الجزائري 1930-1954"، مجلة المصادر، عدد 17 السداسي الأول 2008، ص.ص. 61-

المجلد الحادي عشر/ العدد الرابع / 10 أفريل 2020 ISSN: 1112-8518, EISSN: 2600-6200

25- فارس رشيد، التنظيم القضائي إبان الاحتلال بين المبدأ العام والتميز، الملتقى الوطني حول القضاء إبان الثورة، جامعة الأمير عبد القادر، قسنطينة، 16-17 مارس 2006، منشورات وزارة المجاهدين، الجزائر، 2007.ص ص.84.27.

رابعا: مواقع الانترنيت

26-Favret-Saada Jeanne. La segmentarité au Maghreb. In: L'Homme, 1966, Tome 6 N°2. P.105 (PP.105-111). http://www.Persee.fr/web/Revues/home/Prescript/article/hom_

27- Yazid Ben Hounet, « Des tribus en Algérie ? », Cahiers de la Méditerranée [En ligne] , 75 | 2007mis en ligne le 21 juillet 2008, Consulté le 15 avril 2011.URL: http:// cdlm. revues.org/index 4013.html.